شرذمة سامدون

قصص قصيرة

عبدالرزاق مرابط

شرذمة سامدون

حقوق بعض النصوص محفوظة للكاتب:

EBIN 4-7-1-20117

(إذا لم تستحي ففعل ما شئت)

إهداء

“الأعمال الناجحة هي الوحيدة التي تهدى، أنصحك بالقراءة عن فقرة الإهداء

لماذا تم إقحامها في الكتب”

مقدمة

أحينا تكون هذه الثقافة (ثقافة المقدمة) لا جدوى منها، ما فائدة التقديم لشيء كاتبه لا يعرف عنه شيء سوى معاني الكلمات، المقدمة الأعمال التي تستهدف، لكن هذا مجرد نثر للكلمات وما جاء على الذاكرة.

يوم غائم

تراجعت الشمس خجولتا من ضيف قدومه فرح، ارتباك، توتر، وحلم لم ولن ينسى، الغمام الذي يحجب قسوة الشمس ليبسط الأمل، ضل صديقا منذ الطفولة، يحكي له الأسرار، ويأمنه عليها، غبي من يقول أن طب النفس يحتاج تخصص، فعلا، صحيح، لكن في حالة وصول المرحلة الأخيرة، مرحلة الجنون، وإن كان المجانين أفضل منا أحينا، لا يتقاتلون على المال، لا تهمهم منازل فاخرة وسيارات فارهة، لن تستفزه بما تقول فهو كل شيء لنفسه، لا يهمنا، فقد علم من هاتفه أن الجو سيكون غائما، سيعم الظلام الخفيف، نسيم كما لو أنه وقت الفجر.

يرتدي لباسا واقي من البرد، رغم أن الشمس لا تزال ساطعة، سار بخطى رتيبة يعد الأقدام في الطريق، ترك خلفه الحضارة، اتجه صوب الغابة، عقله معطل عن التفكير، كما الهاتف دون

بطارية، هادئ كطفل صغير ينام في حضن أمه. اقترب من الغابة، اقتربت الغيوم، فاحت الرائحة المعشوقة، اتسع خاطره ليستعد لكل تساؤل، لكل ذكرى، لكل فكرة، عادة قديمة تربت فيه منذ الصغر، لا معنى للحياة دون وقت للتأمل، ولا تأمل صحيح دون جو مناسب، ومكان مناسب، حقا تغير المكان عدة مرات، إلا أنه يستبدل بما أفضل منه أو مشابه له، من الضروري البعد عما يشتت الذهن، ويمنع التفكير الإيجابي، لتحظى بتجربة أنفع.

بلغا مجمع بينهما، استقرت الغيوم قبالته في السماء، افترش حجرة كبيرة فوق جبل حجارة ضخم وسط الغابة، يرى العالم من حيث لا يراه، لأول مرة يرى التصميم الحقيقي لبلدته، شكل يشبه حرف الزاي في أبجدية تفناغ، مباني جديد تتفرع في الجنبات، البلدة تزداد اتساعا وتقدما، لكن، هل السكان يتقدمون أم لا يزالون في جاهليتهم؟ أول سؤال في هذه الجلسة، الجواب عنه يستلزم تحليل المحيط، المحيط الركيك، همجية في الفعل والقول، تعصب بلا دافع، محيط تنطبق عليه القولة الأمازيغية (وجدت العيب يعيب، ناسيا نفسه)، تقصي عيوب الناس، ليس بغية النصح، إنما رغبتا

في تزكية النفس وفرضها كملاك على الواقع، متى يتقدم الناس؟ متى يكف البعض عن تتبع عيوب البعض؟ ليت الواقع يتغير، ليت الفكر يتحسن، لنعيش في هناء، لو كل أمرئ عرف عيبه وأصلحه لكنا أرقى مما نحن عليه، ذات مرة كان وصديقه يترجلان في الشارع، تسمع شتائم وسباب، صراعات شفوية لا متناهية، في ركن للعين أمام مقهى، لكمات، صفعات، كراسي تتطاير، صغار وكبار يتسابقون لمشاهدة الصراع، مباراة كالمعتاد، اثنان في شجار، والبقية ترمي الحطب للنار كما يقال، بدلا من فك النزاع يزيدون الأمر تعقيدا؛ استفسر عن سبب الصراع، تبا، سبب تافه كالمعتاد، شخص هاجم أخر مجرد أنه جاء بسيرة بني فلان التي ينتمي إليها المهاجم، أصيب بالقرف حين تذكر ما حدث في إحدى ما يسمونه بوقفة احتجاجية، يرددون في صوت أقرب إلى الضوضاء شعارات من بينها ‘‘مالك مخلوع الإضراب حق ومشروع’’ عبارة صحيحة لكن إذا توفرت شروط صحتها، فهم عوض أن يقفوا مرددين ما يقولون، بينما بعضهم يتفاوض مع المسؤول للخروج بحل حطموا الأرصفة، رموا

الافتات بالحجارة، أفسدوا الطرقات، تعدوا على الملك العمومي، ثم وقفوا ليرددوا شعارا أخر "المسؤولين يالخونة المزانية فين مشات" دائما المدنيين يلقون اللوم على مسؤوليهم ولا يراجعون أنفسهم ولا أخطاءهم، أحداث تثير غيضه، ابتعد عن المجتمع ليدخل دوامة ذاته، تساءل عن أناه، « أنا شخص كتب لي عيش ما لم أختره، أتذكر أول يوم تذكرت فيه أول يوم تذكرت في حياتي، كنت حينها صبيا في قرابة ست سنوات لكن تساءلت نفس السؤال، كيف وصلت إلى هذه الحياة؟ ظننت أن الكل سقط من السماء أو خرج من الأرض في ذات اليوم، ضمنت أنه أول يوم لي في الوجود كما الآخرين من حولي، كنت أفكر حتى تكاد تنقطع أنفاسي، ضل السؤال مفتوح تجيب عنه الأيام جزءا جزء، علمت بمسيرتي تسعة أشهر، ثم سنة وبضعة أشهر من الرضاعة، استعادت ذاكرتي أحدثا من زمن كان عمري ثلاث سنوات، أحداث رتبها لي والدي وافراد اسرتي الكبار، كنت طموحا منذ الصبا، وددت لو أحقق كل افكاري، لكن هيهات هيهات. مع الوقت تغيرت أصبح صوتي غليظا، أصبحت ملامح وجهي

رجولية بعض الشيء، الرغبات تغيرت، كلي تغير، ادركت قسوة الحياة، تمنيت العيش بسلام فقط، ليتني بقيت صغيرا لا أعرف شيء.»

الحديث مع الذات تحت ضل الغيوم شيء عضيم، ما أحوج الكل إلى دقائق من التأمل والحديث مع الذات، تصحيح الرغبات وفهم للواقع، هنا تعرف عليه وعلى مجتمعه في شيء من الغموض وعدم الوضوح.

البحث عن المجهول

منذ أن استيقظت هذا الصباح شعرت أني لست على طبيعتي، لا أدري هل جننت أم ماذا، طيلة الصباح وأنا أساعد أبي في إصلاح أشياء في المنزل، كنت عصبيا كغير المعتاد، بمجرد أن يرفع علي صوته أشعر بنفسي أريد الصراخ، دخلت إلى غرفتي أنضر حوالي، يمينا وشمالا، أبحث عن شيء يفقدني عصبيتي، بطبيعة الحال أبحث عن شيء أبرحه ضربا، زجاج أو قطعة خشب أحطمها بقبضتي اللعينة، لم أعد أتحكم فيها لدرجة أني كدت أمارس الكاراتيه مع جدران الغرفة، حاولت مراجعة نفسي، لكن لم أنتهي بأي فكرة مقنعة، صبرت مع نفسي إلى إن صلينا صلاة العصر، بدأت أفقد صوابي بما تحمله الكلمة من معنى، قررت الخروج من المنزل للبحث عن ما ينقصني كي أصبح على ما يرام، شققت الطريق نحو الغابة، سرت وسرت دون تحديد

وجهة، كلما قطعت مسافة طويلة نضرت إلى الوراء، تبا لا أزال قريبا من تلك الرقعة الجغرافية، أرض طويلة ممتدة، أشجار طويلة وأخر قصيرة، لم أفقد رغبتي في ضرب الأشياء، لم أخد ما أبحث عنه، صعدت فوق تله، تأملت كثيرا أمامي، ألقيت نضرة إلى الخلف، أخيرا لن أعوذ أرى تلك القرية اللعينة بمجرد النزول إلى الجهة الأخرى، استوقفتني فكرة صدقتها بمجرد سقوطها على عقلي، نعم...نعم، أنا أبحث عن مكان مناسب للجري، أري فقط أن أجري، رفعت يدي عاليا، هممت بالركض كطفل صغير، مدة قدرتها بأربع دقائق وربما أكثر، وقفت مجددا أحاور نفسي، تأكدت أني لم أجد ما أبحث عنه بعد، سرت وسرت وسط الغابة، مرة أخرى أتوقف لدى شجرة بلوط كبيرة، تأملتها ثم قلت حقا أن لم أتناول البلوط هذه السنة بتاتا، صعدت الشجرة إلى الأعلى ألتهمه بشراهة وأنا أضحك وأبتسم، أكلت حتى علمت أني لن أتناول العشاء من شدة الشبع، نزلت من على الشجرة، سرعان ما غابت الابتسامة من وجهي، تجهمت من جديد، نفس الشيء، لم أجد ما أبحث عنه، هذه علامة فقدان العقل، أحيانا ما نرى شخصا

يحدث نفسه في الشارع، يضحك، يتجهم، يشتم، يقذف، وفي الليل ينام وسط الشارع ينتظر قدوم أحد أقاربه ليأخذه للمنزل، إن لم يأتي فلا يبالي، لم أبلغ هذه المرحلة لكنها قريبة على ما يبدو، جريت رميت الحصى، حطمت الخشب، قفزت، جلست، استلقيت على ضهري أرسم بالغيوم، رسمت على التراب الحمراء، فعلت وفعلت لم إجد ما أبحث عنه.

عدت نحو المنزل لا أزال أبحث عما أريد، ابحث عن شيء لاوجود له ربمى، يكن أن يكون في الفضاء الخارجي، ابالغ أحيانا، ما أبحث متيقن من قربه لكن لا أعرفه، ربمى بعد أخذ قصط من الراحة النفسية سأتحسن، لكن يجب أن أجده كي لا أكون مريضا نفسيا ولا مجنونا.

هوس الماضي

منكب على وجهه، يسير في الشارع، بمجرد أن تراه تتأكد أنه يفكر في شيء ما، تحسبه مهموما أو مديون، ما هو إلا شاب تعلق عقله بالماضي، يعود بذاكرته إلى الوراء حيث كان صغيرا بين أسرته، كان طفل جميلا شديد سواد الشعر، حسن الخلق بما فيه من كثرة الحركة، يجلس مع اسرته خلال جلسات السمر، حتى اذا تعمقوا في الحديث، واحسوا له بحلاوة، انتفض من مكانه كالملدوغ مهرولا نحو المطبخ ليشرب كأس ماء، أو يقف دون سبب، يدخل إحدى الغرف، يتأمل الجدران والسقف، كأنه آت لقضاء حاجة ونسي سبب دخوله، يفعل ذلك رغبة في التحرك، فهو آب تماما تقيد حريته، ذات مرة سافر والده، ذهب اخوته

الكبار لدراسة، خرجت أمه لزيارة إحدى جاراتها وأغلقت خلفه الباب وهو نائم، حديث النساء لا متناهي، قضت معها ضعف الوقت الذي خضت لها، استيقظ فلم يجد احدا، باب المنزل موصد ولا سبيل للخروج، طاف حول المنزل غرفة بغرفة، المنزل موحش دون اسرة، بكى بشدو، تعال صياحه في الأرجاء، سمعه المارة قرب المنزل، أمه وجارتها لم يتبادر إلى أذهانهن إلا احتمال رأيته ثعبانا، خاصة انه موسهم، فتحت عليه الباب، هرول نحوها، عانقها بشدة، صمت كفيف تتبعه قهقهة صاخرة .احينا تسمح له أمه بالخروج وحده أثناء وقت دراسة اخوته، أو يغادر المنزل دون علمها، يتوجه نحو المدرسة، لأنها دون حصن، يبحث عن الحجرة التي احد اخوته بداخلها، يطل عليه من النافدة، دائما ما ينظر من زاوية لا يراه فيها المدرس، يحاول اضحاك اخوه، لكنه يحمر خوفا من اكتشاف المدرس لأمره فيضحك باقي الأطفال، كم مرة خانته الحجرة الكبيرة التي يقف عليها ليصل إلى النافدة، وكم مرة رأه المدرس، وأمسكه من أذنه، يرفق به، يحدثه بلغة تناسب سنه .كان ليتذكر طرائف أخرى من ماضيه

لولا أن صديقه أيقضه من حلم الماضي ذاك، تبادلا التحية، حوار صغير ليبدأ مجددا في خوض الحديث عن ماضيه قائلا :حينما كنت صغيرا-وأنت تعرفني كيف كنت- أحب اللهو، أعشق المزاح مع أي شخص، سواء أعرفه أولا أعرفه، لا أرغب في ضياع أي فرصة لأخرج مع أسرتي، كان التنزه معهم أفضل الأوقات بالنسبة لي، لا أريد التفكير في الماضي ولا المستقبل، لكن القدر خان، لم أعد احب عيش الأوقات كما هي، لم تعد الحياة ذات قيمة بالنسبة لي، المستقبل ليس سوى "فوبيا" لا أرغب في معرفة شيء عنها، فمن كان يتوقع أن تسلب الحياة مني اعز ما أملك، بالطبع أنا من تركت وطني، تركت أسرتي رغبة فالحصول على الأفضل، ماذا حدث؟ كدت أكون وجبة للحيتان، لولا فضل الله، لكن... فقدت حريتي، كذلك حياتي، الحيات لم تعد سوى ألبومات الماضي معلقة بذاكرتي .

صديق

ماذا حدث؟

صراحتا لا أدري، لم يحدث هذا واقعيا ولا أنا نائم، وما هي بأحلام!!، ما حدث أنني كنت أحدث صديقي قرب حصن لهم، وما لهم من حصن، كنت واقفا في طرف وهو في الطرف الاخر، بيننا نافذة نتحدث من خلالها، حديثنا لم يتغير، نفس المواضيع، نفس الأسلوب، دون سابق انظار... اشتد بي الغضب، هدمت ذاك الحصن رغم انه منيع .اخذت دقيقة من الصمت ليرتاح عقلي، ويهدا غضبي .شعرت بالخطأ، اقترحت علي ان أعيد بناءه شريطة ان يحظر لي جميع ادوات البناء، اقتصر بهز رأسه موافقا ولم يكلمني، انصرف ليأتي بها، وانا انتظره ترائت لي امه قادمة، استحيت منها، طالما احبت ان اكون صديق ابنها، كلما التقيتها تبتسم في وجهي وتكلمني بكلمات راقية جميلة، لكنها لم تفعل هذه

المرة، اقبلت علي بالسب والشتم، حاولت تهدئتها بكوني سأعيد بنائه، قذفتني بكلمات مؤلمة قبل قولها - :بناء خمس سنوات لن يعاد في يوم .تأسفت لما فعلت، ندمت اشد الندم، الحصن لم يكن بناء، انه الصداقة التي تجمعني بصديقي ذاك، استفذت حقا... بناء السنوات لا يعاد في يوم، سأنتظر عودته لنرمم الحصن رغم انه لن يعود كما كان.

الثرثار

يفصلنا مقعد واحد على متن الحافلة، أسمع صوته اثاقب لاذني، ركبنا قبل نصف ساعة ولم يكف عن الحديث إلا ليأخذ نفسه، لا يؤلمه فمه من الثرثرة، وإن لم يسكت فطول الطريق الذي سننفق فيه ساعتين بعد النصف السالف سيفقدني صوابي، أنا عكسه تماما، كلما ركبت الحافلة في طريق طويل، ألزم الصمت وعيني لا تفارق الشباك وإن لم أكن أتذكر تفاصيل الطريق .تمادى في ثرثرته، أفكر لو وقفت لإسكاته لكنني لا أريد التدخل وعدد الركاب يزيد عن العشرين ولم يتضايق أحدهم، بالأحرى اعتقد انهم مثلي، صبرت لأنها مدة ليست أبدية مهما طالت ونصل إلى المحطة.

هنيه واحدة فإذا به يقهقه بجنون، فاض غيضي، وقفت من مقعدي، استدرت الى الوراء فإذا به واقف وليس جالس، بمجرد

أن لمحني أسرع بالجلوس ووضع رأسه بين ركبتيه، لم أكن أعلم أني أخيف الناس بهذا الشكل، صمت أخيرا، لا صوت... ما عدى صوت المحرك، البعض جاءه النعاس، والبعض منهمك في تصفح هاتفه، ذاك الثرثار لم يعد يتفوه بأي كلمة، ظننت أنه قد فقد وعيه أو أخذه النعاس، استدرت لأراه فإذا به كان واقفا ينظر إلى، كما فعل المرة السابقة حين رآني أستدير باتجاهه، عجبت لأمره وجعلته أطروحة لفلاسفة عقلي طيلة ما بقي من الطرق، حينما توقفت الحافلة قفز منها كطفل صغير نزل في الشاطئ لأول مرة، هرول كأنه يخشى أن أعرفه، سألت شخصا كان يتجاوب معه في الحافلة عن أمره، فإذا بي اسمع العجيب - :انه فلان ابن فلان، كان مرسا في الثانوية الفلانية، معروف بظلمه للتلاميذ والتميز بينهم، لكنه أصيب بالجنون في النهاية .لقد كان نفس الأستاذ الذي يخصم لي علامة يوميا ويقول 'والله لسوف تصبح مجنونا تتجاوب مع الحجارة'، لم يكن بوسعي سوى الدعاء له بالشفاء

جولة في أمريكا

اعتاد كل يوم أن يحدثها عبر الواتس اب كل ليلة، دائما يغلب جو الملل على المحادثة، تلك الليلة طلب منها فتح موضع للحديث فيه، اعتاد سماع عبارة "مللت من العيش"، رده يكون أنا أيضا، إلا تلك الليلة أضاف عليه عبارة صغيرة ذات معنى أضخم لا تحمد عقباه، قال:

- أنا أيضا..لما لا ننتحر ونعيش في عالم الموتى معن . وافقت، طلب منها الانتظار ليتما يضع حقيبة على طائرته 'الهليكوبتر' ليعيشا فيها عند موتهم، وصلا إلى المكان الذي سيقف فيها محرك الطائرة لتسقط بهم فيه، خطرت عليها فكرة أفضل من الانتحار، قالتها هكذا :
- توقف...توقف، بما أنك تمتلك طائرة فلما لا نقوم بجول في أمريكا، أفضل من الموت.

وجدها فكرة جيدة لم تخطر على باله، وجه المقود إلى الشمال وارتفع أكثر في الجو، نزالا في ساحة شاسعة، احسا بجو غريب، المدينة كلها مضاءة بأضواء مختلفة الألوان، ظلت تدير بصرها في اتجاهات مختلفة، امسكها من يدها قائلا- :

تصرفي كأنك في طنجة كي لا يعلموا اننا غرباء .توجها نحو فندق راقي، يحلم أيا كان بالمبيت فيه ولو ليلة واحدة، وضع حقيبته في الغرفة بعد ان افق مع المستقبل على الدفع حين تنتهي مدة استئجار الغرفة، طلب من صاحبته ان تستحم قبل الخروج لتناول العشاء في باحة الفندق، كم من شخصية مهم ستكون معهم، استحمت واستحم، جلسا خلف طاولة راقية، جلست رومنسية، موسيقا لا يفهمان من كلماتها شيئا، لهنيه انتفض من مكانه، لم يتمالك نفسه حين رأى الرئيس السابق أوباما ليقول ببداوة :

- انضري... انه أوباما.

أحس بالضعف حين اكتشف مدى بداوة تصرفه، عادا إلى الغرفة، نامت على الارض وهو على السرير، لم يكد يغفو له

جفن لتعالي شخيخها، ما يخاف منه هو ازعاج جيرانه في الفندق.

أتى الصباح، وبالأحرى وقت الغذاء، لقد ناما حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ونصف زوالا، استحم حين استيقظ كتقليد لما يفعله الامريكيون، استحمت هي الأخرى، بل كادت تقضي النهار كله وهي تستحم، لم تخرج من حوض الاستحمام حتى فرغت باحة المطعم من الراغبين في الاكل، كيف لا وهي أول مرة تستحم في ذات الحوض، خرجا معن لتجوال والقضاء على جوعهم في احد المقاهي، رغبت... ورغبته في الذهاب إلى الشاطئ، هناك تفتح الشهية ويرتاح العقل وتستمتع العيون بمنظره، استقلا سيارة اجرة، دفع له ثمن شخصين حينا نزلا، حلت عليهم دقائق من المتعة قبل تذكره انه لا يملك من المال سوى ما اعطاه لصاحب "التاكسي"، نبهها، اخدا يلتهمان الطريق راجلين نحو الفندق، وقف في المنعطف لتقوم هي بدور اللص لتهرب حقيبتهم من الفندق لعلها تنجح وتنجوان من ثمن المبيت والطعام الذي لا يمتلكانه، نجحت خطتهما، شغل محرك طائرته وانطلقا رجوعا

إلى المغرب .حط بها في ساحة مشهورة في طنجة، طلب منها النزول بسرعة خوفا من ان يتم القبض عليه، وقوفه في ذات المكان ممنوع، قالت:

- لا تخف أنت بطلي .

رمقته بنضرة اعجاب ثم نزلت، استأنف الطريق حتى بلغ بلدته، فتح الباب، سمع رنة رسلة على هاتف، إنها حفصة، كتبت له " كفانا أحلاما هذه الليلة تصبح على خير"، رد عليها كاتبا "لتو فتحت باب الغرفة لأنام... تصبحين على واقع أجمل ."اتذكر حكمة أمازيغية تقول ‹ بالأحلام يعيش الفقراء، فلولاه لماتوا انشغالا بفقرهم.

لوحة

دخلت المسجد العودة من سفر دام أيما معدودات، خطوت خطوات حتى وقفت رجلاي، كبرت وصليت تحية المسجد، انتهيت، فجلست في انتظار دخول الامام للصلاة، رفعت رأسي في حين غرة، نضرت مباشرة نحوي أعلى قليلا، ترأت لي لوحة صغيرة مكتوب عليها بخط عربي، قرأت فيها " :باسم الله الرحمن الرحيم { قل أعذ برب الناس ¤ مالك الناس ¤ إله الناس ¤ من شر الوسواس الخناس ¤ الذي يوسوس في صدور الناس ¤ من الجنة والناس ¤} "في ثوان معدودات أنهيت قراءتها، لا اجيد الرياضيات لأعد كم حرف فيها، علما أن كل حرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، سعيد هذا الذي وضعها في ذاك المكان،

كم شخصا سيدخل المسجد ويجلس في نفس مكاني ويقرأ مثل ما قرأت، يعلم الله كم يوما ستضل ساطعة في مكانها، حتما ستكون صدقة جارية له، يصله أجر من كانت سببا في جعله يقرأ القليل من القرآن خاصتا من كان هاجرا له.

الشرف المهان

نضر للسماء مناجيا، برقت عيناه في شيء من الحزن، شرفه سيهان إذا لم يفعل، سيكره نفسه إذا فعل، تقدم خطوات ثقيلة، توقف ليلقي نضرة للخلف، أوقفته مرارة الأمر، لن يحتمل رؤية أصدقاءه الأوغاد، في حركات تشجيعية، يشجعونه ليدخل الجحيم، ندم لقبوله المراهنة، فرح لفرصة اثبات قوته، ولم يعرف كم يلزمه من الشجاعة، أحشاؤه تحترق غيضا، عقله يكاد ينفجر تفكيرا. أما الفريسة فهي واقفة أمامه، على بعد امتار غير معدودة، تعيد ترتيب شعرها الجذاب في وقفة ملؤها الشوق والحنين، تلقي نضرة نحو الساعة البراقة التي تتلألأ في ساعدها، تيقن أنها تنتظره، تماما كما أفاده أصدقائه المخبرين، توقف من جديد، خاطب نفسه معاتبا « كيف تسمح لنفسك بإفساد سعادتها» عاشت طفلة يتيمة، تقاذفها العائلة قبل أن تجد نفسها في مأوى

للأطفال المتخلي عنهم، صدمت، دخلت فترة كأبة، بالكاد شفيت، قاومت، وثابرت، لتجد نفسها خادمة في البيوت بعد سن الثامنة عشر، ضن الكل أنها فريسة سهلة، طلبها الكل للفاحشة، حتى من أصحاب البيوت التي عملت فيها، صدت ودافعت عن نفسها إلى أن جاء منقذها، ضربا موعدا ليكتبا العقد ويعفها، وها هو ذا سيفسد فرحتها، فقط لأنه جبان، نعم، لو لم يكن كذلك لما قبل المراهنة، الأمر فضيع لكن التراجع أفظع.

«هل أنت ستفعلها حقا؟» لو لم يكن أصدقاءه ينضرون لمر من قربها مرور الكرام، إذا تراجع لن يستطيع الخروج من منزله، لن يتحمل الاستفزازات التي سيسمعها، أراد وقتا أكثر ليفكر، تظاهر بأنه يربط خيوط حذاءه، ضل جالسا لعل معجزة تحدث فيعفى من المهمة اللعينة، سمع صوت الأشرار يهتفون به من الخلف، كأنهم يقولون فهمنا لعبتك، لم يلتفت، لا يريد رؤية أيعنهم تحترق شوقا لمشاهدة ما سيفعل، هز يده معلنا همامه بالأمر، استأنف السير والتفكير، نعم... الدين يحرم مثل هذه الأفعال، سيسأله الأوغاد، كم ركعة في الضهر؟ ويفضح جبنه أمامهم، عليه

أن يفعلها، لا عيب إن تراجع عن فعلة كهذه، «إذا فعلتها، شرفي سيهان دون شك»، تنفس بقوة، «أعلم ما أنا مقبل عليه، رغم ذلك لن أهين شرفي أمام أصدقائي، لن يرغبوا في صداقتي إن لم اتمم المهمة، بماذا ينفعهم جبان مثلي، سأفعل ما طلب مني ثم أعتذر لها بكون مضطر.»

رفع يده معلنا بدأ المرحلة الخطرة، تقدم نحوها بشعور بين الخوف وتأنيب الضمير، تظاهر في البداء أنه لم يراها كي لا تخاف منه، في حركة مسرحية انقض عليا كالذئب، أبدت مقاومة عنيفة، تجشأت، صرخت، ابتعد عني، ابتعد عني، أحاطها بدراعيه، صمتت عن الصراخ، تلاشت مقاومتها، برقت عينيها في شيء من الساعدة والخوف، لم يعلم ما حدث بعد ذلك، توقفت الحياة حتى وجد نفسه في سرير المستشفى يبكي ألما في رأسه، حدثته الممرضة جاهلتا ما حدث:

- لقد كانت ضربة قوية على رأسك لكن أربعة من الشباب جاؤا بك في الوقت المناسب، قالوا أن أحدهم ضربك بقطعة خشب ثم تركك... هم لا يعرفونك.

شرفه وطأ الأرض، لم يحفظه ولم يحفظ أصدقائه الملعونين، ليت الزمان يعود للوراء، يرقى بشرفه، ويتحاشى جروح القلب والجسد.

صغير ولكن

اعتاد كل صباح أن يترك أمه واقفة أمام الباب تنظر إليه وهو يبتعد خطوة خطوة، تدعو له بالنجاح والفالح، تطمئن أنه ذاهب الى المدرسة عكس بعض أقرانه المنحرفين الذين يتسكعون في الشوارع ليالا ونهارا. ما إن يغيب عن انظارها، تدخل وتغلق الباب خلفها ولا تزال تدعو له، هو بمجرد أن يغيب عن انظارها يضع حقيبته المدرسية في منزل قديم مهجور لا يدخله أي شخص عداه، هنا يتأكد أنه لن يجدها أحد، من نفس المكان يلتقط سجائر وواللعة، يتوجه للقاء أصدقائه.

كلما عاد إلى المنزل تشم فيه أمه رائحة عطر ليست لديهم في المنزل وكلما سألته عنها يرد:

- جلس قرف فتاة تستحم بالعطر فتنتقل إلى الرائحة.

صدقته لأنها لا تعرف عنه الكذب، ابها صادق منذ صباه، لكن العطر يضعه بعد الانتهاء من تعاطي السجائر كي لا يتعرف والداه على الرائحة.

ارتق، ى عن مرحلة السجائر، لم يعد يتعاطاها وحسب بل تخطاها إلى المخدرات وشرب الخمر، العجيب في الأمر أنه طفل صغير كيف له فعل هذا.

كان قد رآه شخص يعرفه في أحد اللزقة يتعاطى كما ألف وشى به إلى أخيه الأكبر في الحين، حين قدومه لم يجد أي شخص ولا دليل على مرور مدمن في المكان، ظل يجول الشوارع واحدا تلو الآخر والأماكن التي تعج بالمنحرفين ليس له أثر، نسي البحث عنه في مدرسته هل هو حاضر أم لا.

لا شيء يمكنه ان يخفى طويلا، اليوم أو غدا يفضح امر، ذاك اليوم هو يوم انكشافه على حقيقته، فقد عاد من المدرسة متأخرا وبدأ أخوه يسأله، لماذا عدت متأخرا؟ ماذا درستم اليوم؟ كيف مر الدرس؟ ومع من كنت طيلة زمن المدرسة؟ أسئلة صعبة، في نظره ليس لها جواب، بينما هو يفكر في كذبة لعله ينجو وردت

مكالمة هاتفية في هاتف والده رد الأخ الأكبر لأنها غير موجود، لقد نجى، له الأن الوقت الكافي الابتكار كذبة يدونها التاريخ، المصيبة أن مدير المدرسة هو المتصل ليسأل عنه وسبب غيابه عن الدراسة أياما معدودات، وإخبار والديه إذا لم يعرفا هذا، بدأ العقاب مع الأخ بعدة صفعات ثم تاله دور الأم بالتوبيخ والصفع ودعوات السوء، هذا لا شيء، دخل الأب غاضبا، سمع الخبر من ام أحد أصدقاء الابن التي رأتهم يتعاطون معا، أخذ حزام السروال الجلدي أبرحه بها ضربا حتى صارت أشلاء، أخذ عصا حتى صارت قطعا متناثرة، لكمه على وجهه واحمر بالدماء.

حن قلب الأم من جديد ومسحت له وجهه لكنها لا تعلن عن العفو التام، من تلك اللحظة لم يعد يذهب الى المدرسة ولا يعود منها إلى وهم يراقبونه، تخطى هذه المرحلة بصعوبة، بعد أيام من الشدة والابتعاد عن أصدقاء السوء.

2020

قوارب الموت

سيطرت عليه فكرة الانفصال عن الدراسة والهجرة إلى الديار الأوروبية رغم أن أسرته بكاملها ترفض ذلك، خاصة أنه لا يزال في مقتبل عمره، دائما ما يحاول إقناعهم بالفكرة لكنهم مصرون على فكرتهم كما هو مصر على فكرته.

اشرقت شمس البسمات ذات صبيحة تضيء له طريقه قبل استيقاظ الجميع ليأخذ حقيبته الحبلى بملابسه وبعض المال الدي اذخره من أجل هذه اللحظة، اتجه بمعية أحد أصدقائه إلى ميناء أقرب مدينة لهما، وجدا ثالثة قوارب في انتظار المهاجرين مثلهم، ركب في قارب وصديقه في قارب أخر، انتظروا طويلا في برد الشتاء القارص قبل حضور الكل لتبدأ الرحلة التي كان يتمناها، كل من على القوارب الثالثة سعيد ويستمع إلى الموسيقى

واصوات الأمواج، وصل به القارب إلى منتصف البحر بين الدول، أسرته لا تزال حائرة في أمره ولا تعلم اين هو.

أشرق وجه ركاب القوارب بعد رؤية الساحل غير بعيد، خفق القلب وترقرقت العيون، لكن الفرحة لا تدوم، هاج البحر دون سابق إنذار وترامت القوارب بين الأمواج ووقع الكل في الماء، فقد الوعي ولم يشعر بأي شيء حتى فتح عينه في الشاطئ وشرطة البحر فوق رأسه تنتظر عودة الوعي له، وقف يمشي بين المتوفين ولا يزال يشعر بالغثيان يبحث عن صديقه العزيز، وجده بينهم شهيدا، انحنى إليه باكيا يعتذر له من المكيدة التي أقحمه فيها.

بقي في المستشفى عدة أيام يسترد عافيته بالكامل، تكلفت الدولة بإعادته إلى حضن أسرته، عاد إلى مدرسته كالجندي لعائد من الحرب سالما بكنهم خسروا، تعلم عبرة تنفعه طول حياته.

جريمة الطفولة

بزغت الشمس وقد استيقظ من قبل بمدة طويلة، لا دراسة ولا شيء يسيء المزاج، ظل يتجول داخل المنزل، من غرفة إلى أخرى، ثم إلى المطبخ، كل شيء ممل، يا له من صباح غريب، عاد إلى فراشه، لا يزال ساخنا لكن النوم لن يعود، عينه فتحت ولن تغلق مرة أخرى، وقف مجددا متجها نحو خزانة والده، فتحها وأخد يفتش في أغراضه، استيقظ اخوه الكبير "أمجد" على صوت صرير باب الخزانة، توجه نحوها ليجد أخاه قد خربها كاملة وأخرج ساعات قديمة يمسكها بين يديه، خرجا الاثنان من المنزل متسللين كاللصوص حاملين الغنيمة، ماذا عساهم يفعلون بها، قال أمجد أنها مجرد خردة قديمة لا فائدة منها، فكرا في الأمر مليا ثم فككا الساعتين وحوالهما قطعا غير صالحة لأي شيء،

أخذا يهرولان في الشوارع قبل استيقاظ الدجاج ناهيك عن البشر، أكيد سيعاقبان عند العودة الى المنزل، العقاب لن يكون سوى صفعة مع التوبيخ اللعين.

استيقظ الأب ووجد حزانته مبعثرة والساعتين غير موجدتان والأبناء كذلك، خرج حائرا بحثا عنهم، وجد ساعاته مفككة جانب المنزل، اشتد غضبه واستمر في مشيه وهو يفكر في طريقة العقاب وخصوصا أنهما أتلفا ذكرى من جده –رحمه الله-، وجدهم في أحد الأزقة يضربان طفال صغيرا ليأخذا منه شيءا ما، قام بصفعهم حتى بلغا المنزل، علقهما في سقف المنزل بحبل متين وأقسم جهد يمينه لإن فكهما أي شخص سواه حين يشاء ليعاقه مكانهما، اتجه نحو متجره غاضبا وحزينا على ذكرى جده .

لهم ساعة ونصف في السقف والحبال تقيدهما بإحكام كجسد أضحية العيد، قدمت الأم لتوبخهما من جديد فوجدت الحبل قد وصل جيد أمجد وخنقه يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، أسرعت لتحريره قبل أن يقضي أجله، عاد إلى حالته الطبيعية، ابتسم في

شيء من التفكير في الماضي ثم أخبرني أن هذه أخطر جريمة يقومان بها ولقيا أسوء عقاب في حياتهما.

الغيرة

كنت جالسا في الحديقة حينما حضر صديقي المقرب في حيرة لم أراه فيها من قبل، لا أدري هل هو سعيد أم أن هناك مشكلة، يبدو مبتسما لكن ابتسامته مبالغ فيها، سألته عن سبب تلك الابتسامة الغريبة، سكت مدة طويلة يأخذ أنفاسا ظننت انه فقد صوته او قطع لسانه ثم قال اخيرا:

- لقد مر هذا العام اخيرا وانت تعرف المعدل الذي نجحت به، ابي اعطاني هدية بهذه المناسبة.

استغربت لأمره، لقد جن تماما أيفرح بهدية إلى هده الدرجة، تفوه بعد هنيه ليضيف أن الهدية جواز سفر إلى فرنسا، أنه سيكمل دراسته هناك .غرت منه ولزمت الصمت، تغيرت ملامح وجهي إلا أنه لم يلاحظ شيئا، ظن أني فرحت له، علمت أنه سيدرس في جامعة السوربون في باريس لكن لم أتأكد، لذا كان ذلك أول سؤال

أساله في ذات الموضوع، لأني طالما أردت السفر إلى فرنسا والدراسة فيها إلا أن الظروف ليست في صالحي، حزنت بكل ما تحمله الكلمة من معنى وبدأت أخف حزني بالتحدث إليه ومشاركته الفرحة باغتصاب، قال أنه سيسافر بعد أسبوع، لم أكن تجربة إحساس أن يكون أفضل مني ولا التفكير في ذلك،
كذبت عليه وقلت أني سأدرس في ألمانيا لكنه أنساني إخباره بكثرة الحديث عن فرنسا وباريس، شعر بالغيرة مثلي لأنه يفضل ألمانيا عن فرنسا.

- سأسافر بعد أسبوعين .

حينما اقترب وقت سفره جاء إلى فقال لي:

- ما رأيك إن لم نسافر، فأنا لا أستطيع التخلي عن وطننا الجميل، لما لا نبقى جميعا.

كدت أضحك ولم أعط وقتا لنفسي في التفكير لأني كاذب أصالا وهذه هي بغيتي، قلت أنه صادق، ألغينا جميع رحلاتنا أو بالأحرى رحلته، وطلبت منه عدم الحديث مع أفرادي عائلتي في هذا الموضوع تجنبا غضبهم.

أحداث من نسج الخيال 2020

قرب شجرة

اخدت الطفلة قلما وفتحت دفترها العجيب، كتبت جملة من يومياتها المألوفة، وسرعان ما انبثق من الدفتر أشخاص ثلاث، رجل وزوجته، وابنهما الصغير، صاحت الطفلة باكية.

- من أنتم.

قال الرجل:

- أنا أبوك، وهذه أمك.... وذاك أخوك.

قالت الطفلة:

- ابي، امي، اخي، لم اراكم مدة طويلة .

جلست الأم ومسحت عيني الطفلة من الدموع وقالت :

- نحن الآن بجانبك...لا تحزني.
- كيف لي أن لا أحزن و قد غبتم مدة طويلة...حتى أني لم أعد اتذكر ملامح وجوهكم .

- أنه مجرد طيف عابر، وها نحن عدنا، فاذهبي لتلعبي مع أخيك ماجد.

أخد الطفلان يهرولان هنا وهناك، يقطفان الأزهار في المروج الخضراء، يلعبان معا ألعاب الطفولة التي يتمناها كل أطفال العالم، الأبوان ينظران من بعيد، لوهلة يتوقفان عن الجري، ويجلسان تحت ظل شجرة كبيرة، قالت الطفلة :

- أين كنتم طول هذه المدة التي غبتم فيها؟
- كنا في مكان مليء بالورود والأشجار، تفوح منه رائحة الريحان .
- إذن كنتم في الجنة
- نعم، وهل تتذكرين يوم تركناك؟
- كيف لي أن أنساه ، كنت أبكي باستمرار، أخافني صوت الرصاص، تمنيت لو أن تلك الأغلال أخذتني معكم، ليت الله ينتقم من الأعداء.
- سيأتي وقت ينتقم فيه الله من كل ظالم.

هبت رياح خفيفة غيرت الصفحة من دفترها، اختفى ماجد وأبواه، لم يعد لهم أثر، لكنهم تركوا لها ورقة مكتوب فيها " ابدئي حياتك دوننا، فلن نعود من جديد "غرقت المسكينة في البكاء، وبدأت في رسم طفولة بدون عائلة .

هداية

أي مكان يأويني؟

اشعر ان لا قيمة لي في اي ركن من العالم، اشعر بالوحدة وإن كنت في حضن أسرتي، املك كما هائلا من الأصدقاء لكني لا اشعر بهم، اعيش حياة لا طعم لها.

كما ألفت، خرجت من المنزل ضائق القلب، مهموم الأفكار، انضر حولي وكأن الكل سافر وبقيت وحدي، أزقة لا حياة فيها والناس كلهم أحياء، امتار عديدة توقفت عندما سمعت اصوات اطفال مثلي، نظرت اليهم بحدة فلم يشعروا بوجودي، تتعالى اصواتهم، اختبئ انت....هاجم انت....لقد هزمت...، عبارات لا متناهية من افواه لاعبي لعبة "فري فاير" شعرت بالأسى حيالها فانا لا احب تلك الألعاب، في كل خطوة اخطوها انضر حولي لعلي اجد شخصا أحدثه، مررت من كل الشوارع، واحدا بعد

الأخر لم يجدبني اي شيء إلا بعد ان رأيت لافتة مكتوب عليها مقهى الأصدقاء، ابتسمت، أخذت نفسا، دخلت من ذاك الباب الرمادي المفتوح امام الجميع، لا حراك ولا صوت غير صوت التلفاز، نضرات الكل تكاد تسقطه من مكانه، لحظة واحدة يقف الكل وبصرخة واحدة يقلون:

- هدف وييييه.

يعود الصمت والتحديق في التلفاز، علمت ان هذا المكان لا يناسبني، خرجت مرة أخرى ابحث عن مكان اخر، تجولت كشخص متشرد وسط اناس عديمي الضمير.

في نهاية المطا، قررت اخيرا العودة الى فراشي الساخن الدي لا افارقه لليل نهار، في الطريق سمعت احدا يناديني من اعلى صومعة فوق بناء ذو باب كبير اسود اللون، نادى الجميع لكني شعرت اني الوحيد الدي يناديه، اسرعت في تلبية ندائه، نظرت إلى الباب الفتوح على مصعيه، لمحت عبارة مكتوبة بخط واضح "إن المساجد لله" عبارة زرعة الفرح في قلبي، دخلت، صليت ركعتان وجلست كما يفعل الجميع، لحظات قليلة ويدخل رجل

ينبعث النور من وجهه، بدأ الناس بالوقوف و استطفاف كالجنود، دخلت الصف معهم، شعرت بالدفء الحقيقي لأول مرة، بدأنا بالصالة وبدأت الابتسامة تظهر على وجهي، انتقلت ملامح وجهي من العبوس إلى البشوش، حينما انتهينا صرت اشعر باني عضو مهم في المجتمع واصبحت اشعر بالناس حولي خاصة بعد ان ترددت على المسجد كل وقت صلاة دون انقطاع حتى اصبح الكل يحترمني، هنا علمت ان الوحدة تأتي عندما نفقد صلتنا بالله عز وجل .

اغتصاب طفولة

صدى صوت طفل بريء خلف الستار، اي ستار تقصد؟

ليس ستار المسرح بل ستار الحياة، يعيش ولا احد يعلم كيف يعيش، من صوته علمت انه حزين قبل رأيته، خفت مما سأراه لكن لم ارضى بتجاهل ذاك الصوت كما يفعل الجميع، أزلت الستار، ضهر لي طفل صغير لا يتجاوز الست سنوات من عمره، عزمت على المشاهدة من بعيد لأعرف ما به، فإذ بوالده يستيقظ كل صباح مع اذان الصبح، دون رحمة ولا شفقة يهرول الى فراش أبنه الصغير، يناديه باسمه ثالث مرآة فإن لم يستيقظ صفعه على خده اجبارا له على الاستيقاظ، حينها يعطيه فأسا اثقل من الطفل ذاته، امره بالتحرك امامه بصوت مخيف، بالكاد يتحرك من شدة البرد وثقل الفأس إلا ان والده اجبره على التحرك كما

يفعل الناس مع الحمير، نزلت دمعات من عيني شفقة لحاله، لكن لا مجال لتدخل، بعد طول الطريق اشرقت الشمس، أخيرا بدأ يشعر ببعض الدفء .

رثى قلبي حض الطفل حين رأيت الأب يشير بأصبعه الى مسافة ليست بالقريبة، يقول شيئا لم اسمعه ثم يتبعها اشارة تدل على الذبح، غادر الأب المكان ووجدت فرصة الدنو من الطفل أحاوره :

- مرحبا يا صغير.

هز راسه واجاب بسرعة المطارد.

- مرحبا، من تكون؟
- انا عبد الرزاق...ماذا تفعل هنا بمفردك؟
- والدي يجبرني كل صباح للعمل من اجل قوت العيش، تخيل ان هذه المنطقة إن لم احفرها قبل عودة ابى، لن ينال اجرها، اما انا فسوف يشبعني ضربا.

قلت له بصوت مندهش

- هل اساعدك؟

- ان استطعت ان تكمل دقيقة من العمل.فالأمر شاق جدا.

اخذت فأس صغير وبدأت بالحفر كما يفعل، لكني لم أستطع تجاوز دقيقة كما قال حتى كادت انفاسي تتوقف، وعضلاتي تتمزق، وضعت الفأس جانبا وقلت:

- أيوميا تشتغل هكذا؟ هل والدك لا يشتغل معك؟
- هذا حالي وحال بعض امثالي في القرية، نشتغل هكذا طوال حياتنا، اما ابي فهو يشتغل لكن اجره لا يكفي للعيش ودراسة أخوتي
- وانت ألا تدرس؟

نضر الى الشمس برهة ثم اجاب بسرعة:

- انا لا ادرس...هيا غادر، فقريبا سيعود ابي لتأكد من استمراري في العمل.

لم أجد ما أقله، غادرت المكان واكتفيت بالنضر من بعيد كما يفعل الكل فليس بيدي حيلة سوى تمني مستقبل زاهر لكل من اغتصبت طفولته.

عابر سبيل

دخل المدينة على حمار أهزل، ثيابه رثه لم يرى مثلها من ذي قبل في المدينة، يرتدي قميصا أسود يعلوه الغبار، سرواله ممزق عند الركبة، تظهر فيها خدوش تقول أنه صقط من فوق ظهر الحمار، رأته بعض النسوة من الشبابيك، أسرعن لإغلاق الأبواب خوفا منه، دارت أفكار عديدة في أذهانهن، يعتقدن أنه مجنون أو أنه أتى هاربا من شخص ما، إذا كان كذلك فإنه قد اقترف جرما عظيما، قاد حماره في الطريق المعيدة أمام السيارات ينظر حوله يمينا وشمالا، مؤكد أنه يبحث عن شيء ما هنا، وضع يده خلف ظهره من شدة التعب،تقدم سيرا نحو نقطة مجهولة. وقف أخيرا أمام حانة صغيرة، قيد حماره بعمود كهربائي ينطفئ ويشتعل من تلقاء نفسه، دخل الحانة وجلس على كرسي خلف الطاولة في ركن يشاهد حماره، أتى النادل يسأله عما يريد، نظر إلى حماره ثم إلى يديه.

- أريد ماءا أغتسل به وطعاما يذهب جوعي.

رماه النادل بنضرة استغراب، طلب منه الانتظار قليلا، دخل إلى المطبخ، خرج من جديد يطلب من صاحب الحمار دفع ثمن الخدمة قبل الحصول

عليها، وضع يده في جيبه، أخرج قطعا نقدية حديدية، وضعها على الطاولة، أخدها النادل في يده يعدها، ألقاها له بطريقة مهينة، ليس غاضبا ولكنه يطلب منه الانصراف بسرعة، يحاول صاحب الحمار قول شيء ما، لكن النادل لا يترك له مجالا لتعبير، هدده بمناداة الشرطة إن لم ينصرف، حينها خرج كئيبا حزينا يكاد يسقط من التعب، سار قليلا من الوقت قبل أن يقف أمام حانة أخرى، فعل كما فعل في المرة الأولى، تكرر معه الحدث نفسه، لم يتغير سوى العبارات التي تحدث بها النادل، خرج كما خرج قبل قليل من الحانة الأولى، هذه المرة كاد يجن، بكى كأنه فقد أعز إنسان في حياته، كيف لا وقد تم أخد حماره في شاحنة تابعة للشرطة، ممنوع ترك الحمير في الشارع، لكن، هل مرة الشرطة هنا صدفة؟، أم أن صاحب الحانة قد ناداهم؟، لا يهمه من فعلها، فقد ابتعدت الشاحنة، لا أمل في إرجاع حماره، تذكر أبنائه الذين هم في انتظاره الآن، لولا ما حدث له من مصائب لكان معهم حول المدفئة يحكي لهم عن سفره، وجد نفسه في الشارع لا يملك المال للعودة، بل حتى ليدفع الجوع عنه، اعتذر لأبنائه بصوت مسموع، استلقى في الشارع قرب الطريق، نام وهو يتمنى ألا يستيقظ أبدا، يفضل الموت على الحياة دون أمل في العودة إلى أبنائه، سمع صوتا يناديه، ضن أنه ملك الموت يريد أن يصطحبه، كرر الشخص ندائه، وقف فإذا به رجل في مثل سنه يحدثه، سمع ما يقول.

- أتدري يا صديقي أني رأيتك في الحانة الأولى، والآن سمعت عما حدث معك، نعم...لقد سمعت كذلك ما قلته مع نفسك قبل قليل، تضن أنك طرقت جميع الأبواب ولم يستجيب أحد، أعلم أنك فقدت الأمل، لكن، مادمت أريد مساعدتك فأنت بأمان، ستبيت عندي هذه الليلة وغدا سأبحث لك عن حل.

برقت عينه حينما سمع كلام الرجل، شعر بروحه تتسلل إلى جسده من جديد، شاهد أبنائه يلعبون أمام عينه بعد مدة لن تطول إن شاء الله، طلب من الله أن يطيل عمره أكثر مما يريد، فقد تمنى الموت في لحظة فقدان الأمل لا كرها للحياة.

قصة طويلة في أجزاء

(البئيس)

الفصل الأول

البحث عن السراب

كفله جيران جده الذين اعتنوا به حينما عجز عن السفر، عاملوه كابنهم، مونية تعتبره ابنا لها، خاصة انها عقيم لا تلد، حرصت وزوجها على جعله يستمر في دراسته وينسى صدمة وفاة جديه، كان صغيرا ليفهم الحياة، لا يستطيع منع دموعه كلما حط الضلام رحاله وجدته ليست بجانبه تحكي له احدى القصص التي يتلدد بسماعها.

كان عمره سبع سنوات حينما تكفلت به مونية، عاش معها حتى بلغ سن العاشرة، واقترب من انهاء مرحلة التعليم البتدائي، خلقت مشاكل بينها وزوجها، يعيش يوميا تحت ضغط الصراخ ورفع الصوت، كل منهم يبرء نفسه من العقم، كأنه جريمة يعاقب عليها القانون، لا يزال صغيرا لكنه يتدخل بعبارة يكررها يوميا "كل شيء بيد الله"، يتحاشون الاستمرار في الحديث كلما تدخل بعبارته تلك، فهموا انهم يئذونه بالمشاكل اللامتناهية، تمر الايام، تتفاقم المشاكل، بلغ بهما الأمر المنعطف الأخير، نهاية المسلسل كانت بالطلاق، انفصلت

مونية عن زوجها، هاجرت بعيدا لأنها لا تملك شيئا من شأنه ضمان عيشها بكرم، زوجها باع المنزل وغادر المدينة هو الأخر.

ذكرى الجدان تعود من جديد، بعد خمس سنوات، دخل منزل جده للمرة الاولى، عادت به الذاكرة الى الماضي لتعرض تلك الصور القليلة التي لا تزال تحتفض بها، شعر بضيق في روحه، للمرة الاولى يفكر في والديه، لقد شعر بغيابهم اخيرا، منذ اول يوم، او اول دقيقة يتذكرها كان في حضن جديه، تبادرت الى ذهن اسئلة عديدة، من هم ابواي؟ هل هم احياء ام موتى؟ إن كانا احياء هل يمكن ان اصل اليهم؟ وما سبب تركهم لي؟ جداي هل هم ابوي امي ام ابي؟

احس بألم شديد في عاطفته، تخيل طفل في مثل سنه يقع في موقف كهذا، والله ليقطع قلوب اصحاب النفوس، بكى بكاء شديدا، تمنى لو يحس به احد الجيران ليتكفل به مرة اخرى، ولو لمدة سنة ليتما ينهي دراسته الإبتدائية ويلتحق بالإعدادية، حينها على الأقل يمكنه دخول القسم الداخلي، سيستفيد من الإواء والإطعام ما عدى العطل الدراسية، لا يهمه الأمر طالما سيقضي معضم الشهور داخله، قطع تفكيره في الإواء، فهو يراه مستحيلا، ما يهمه هو البحث جيدا في جميع زواي المنزل لعله يجد تلميحا لأسرته، يمكن ان يجد صور لهم أو كناش

الحالة المدنية الخاص بوالده، حتى من اسمائهم لا يعرفها، بدء من تلك الغرفة الصغيرة تحت السلم الصاعد الى الطابق العلوي، ادوات عمل جده القديمة، ملابس جدته البالية، تجهيزات كهربائية احتياطية، وكذا أنابيب الماء، اشياء لا قيمت لها، حقائب صغيرة ليس بها سوى اوراق من فواتر الماء والكهرباء من اولها الى اخرها، تذاكر الحافلة كلما تنقلوا الى مكان ما، زاده هذا تحفيزا للبحث، بما ان جده احتفض بكل هذه الأشياء التافهة فلا محال في ان يحتفض بأشياء ذات قيمة، وقعت عينه على اخر حقيبة لم تفتح، اخدها في يده، تحسسها قبل فتحها، بها اوراق ايضا، وضعها جانبا، لديه حدس يقول انها ايضا ليست سو اشياء كسابقتها، هم بالوقوف لاستئناف البحث في مكان اخر، حاول ازلة الغبار على ملابسه، رمى الحقيبة بنضرة اخرى، بها ما يميزها عن باقي الحقائب، انها موصدة بقفل صغير متساوي الطول والعرض اقل من السنتيمتران، دق قلبه بشدة، قدف جلد جبينه قطرات من العرق، تيقن مائة بالمائة بل الف المائة انها تحتوي على ما يبحث عنه رغم انه يبحث عن المجهول، بدون جهد عثر على اول دليل ليعرف من يكون، خطوة واحدة ويجد نسبه، ملفات والده الشخصية، عليه البحث الآن عن مفتاح داك القفل والا استدعى الأمر

تشغيل بعض ادوات جده بعد ركودها لمدة دون شغل، تذكر المكان الذي تضع فيه جدته جميع مفاتيح المنزل، من مفاتيح الابواب الداخلية والخارجية، مفاتيح الحقائب مثل تلك، ومفاتيح الخزائن، تذكر سنوات مضت حينما كان يبحث عن تلك المفاتي في غيابها للبحث عن الحلوى او حينما تعاقبه وتغلق على ألعابه في الخزانة، لم يجدها إلا في مخزن سري لا يعرفه احد غيرها قبل اكتشافه من طرف الصبي هذا، ليس بغريب عن عجوز ان تخفي المفاتيح في المطبخ داخل احد الأواني التي لا تستعمل كثيرا، هذه المرة لم يتسلل كما ألف، انه الآن حر طليق لا يكبله سوى أغلال الحياة القاسية، اسرع لأخد المفاتيح وعينه تبكي على فقدان جديه الحنونين، تجنب الدخول إلى ذاك المنزل من قبل تحاشيا لإثارة الأشجان بداخله، لكن هي التي دفعته لدخول إليه، وضع يده فوق الإبريق الذي يجد فيه الكنز، رفع غلاقته بخفة، للأسف ليست هنا! احس أن القدر ضده، لا يريد له ان يعرف ابن من يكون، فكر مرة اخرى في الخروج من المنزل ويستعين بالخطة باء، كيف له ان يفعل هذا؟ لا يحب رأية احد من جيرانه وما بالك بسؤالهم عن نسبه، ليس لتوقعه انه سيقع محل صخريتهم ويقلون ان الصدمة أفقدته ذاكرته، إنما لأنهم لا يمتلكون قلوب، ليس لهم ضمير، ولا قطعة كبد

يشفقون عليه، من ليلة البارحة طرح خارجا ولم يأتي احدهم ليطمئن عليه أو يدعوه إلى وجبة طعام حتى، قرر البحث عن تلك المفاتيح من زاوية إلى أخرى، بما أنه وجد بداية الخيط كما يقال فإنه سيجد نهايته طال الزمان أو قصر، نشفت دموعه، وقف لحظة يأخذ انفاسه، يتسرب إليه الأمل والشوق مع الأكسيجين، يقوم بمهمته ويتخيل نفسه في أول لقاء مع أبويه الحقيقيان، لا يعرف هل يغني فرحا لما وصل إليه في بحثه مع بدايته أم يبكي حزنا على الدافع وراء هذا، تارتا يلحن أغنية جدته المفضلة، وأحيانا الأغنية المفضلة لدى جده، رغم اختلاف هذه الأغاني إلا أنها تعود لنفس الفنان، ساعده هذا ليعود بداكرته نحو الماضي، يسترجع المشاهد العالقة بداكرته، أين كانت جدته تضع المفاتيح غير المكان الأول؟ نعم قبل وفاتها، أو قبل فقدانها كما يحب أن يقول، لما يتسرب إليه من حزن كلما ذكر موتها، كانت مسافرة، إذن ستكون المفاتيح لدى ملابسها التى ذهبت بها، لا يمكن أن تتخلى عنها.

ياللمصيبة، كيف لم يتذكر هذا من قبل؟ جارتهم التي مكث معها قبل أن تخيم عليهم المشاكل هي التي أعطته مفاتيح المنزل قبل مغادرتها المدينة، ربما تكون جدته فصلت مفاتيح الباب الخارجي عن باقي

المفاتيح، وربما جارتهم هي التي فصلتهما ونسيت أمر البقية لأنها غادرت غاضبة وليست في حالة نفسية جيدة، ياللأمل المندثر، حتى مشتري المنزل لا يعرف من يكون، وليس في استطاعته الصبر حتى يخيم بالمنزل، قرر استعمال العنف مع ذاك القفل، كلاهما صغيران، إلا أن الشوق للقاء الوالدين يستحق التضحية بأغلى ما يملكه الإنسان بعدهما.

أخذ شيئا من أذوات جده المرحوم، ماهو بسكين ولا منشار، له يد كمفك البراغي، لا يعرف اسم ذاك اشيء، ولا يهمه معرفته أصلا ما دام سيقضي حاجته، وضع جانب القفل على حافة الأرض الإسمنتية وفوقه ذاك الشيء الغريب، أبرحه ضربا بالمطرقة، فشلة المحاولات الأولى، كرر نفس الشيء مع زيادة قوة الضرب، ارتفع منه قبس من نار في رمشة عين ناتج عن احتكاك الحديد، أخرج ما بداخل رأتيه من حواء دفعة واحدة ليستبدله، يالسعادته، فتح الحقيبة أخيرا، كما كان يعتقد بها أوراق عديدة، لمحت عينه رخصة سياقة، جده لا يملك رخصة سياقة، إذن لمن هي؟ إسم لا يعرفه ولم يسبق له أن سمع به، وضعها جانبا كدليل أول، لمحت عينه ما كان يتوق لرأيته، دفتر الحالة المدنية، لمن هو؟ ليس لجده لأنه سبق وأن رأه منذ عدة أعوام، فتحه

وقلبه يخفق بشكل غير عادي، به أسماء أبناء صاحبه، اسمه كالإسم المرسوم على رخصة السياقة، لاحض أن به أوراق ممزقة، اسماء بعض الأبناء غير موجودة، احتفض به ليرى ماذا بقي هناك، بقية الأوراق غير مهمة، ضرائب وأوراق اقامة في الفنادق، في الأسفل ورقة مكتوبة بخط اليد، بمجرد أن رأه عرف فيه خط جده، كيف يخفى عنه وهو كل ما كان يملك، أغمض عينيه يناج الله قبل قراءة الورقة، قرأ فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد إني لا أدر هل سيسأل أحد عن هذه الأوراق قبل وفاتي، إن سأل فأنا حي، وإن كنت ميت فليعلم أني حفضت أمانته مذ أن وجدتها في أحد الأرصفة معها مبلغ مالي، علمت أنها لا تحل لي إلى بعد عام، لكن أفضل لو تعود الامانة لصاحبها، كنت حيا أم ميتا والسلام »

حفض جده الأمانة كما حفض سر سبب عدم تعرفه على أبويه، رغم تيقنه أنه كان ينوي إخباره بالحقيقة حينما يكون كفء بذلك، تحولت الصور التي تخيلها إلى سراب، اشتد غضبه وتحسره على حضه هذا، لصغر سنه اعتقد أنه الوحيد الذي يعاني من أقدار احياة، استأنف

البكاء، وعزم على أن تكون الأوراق ما سيدفئه في أول ليلة باردة مع اقتراب فصل الشتاء.

الفصل الثاني

صدمة أولى

قست الحياة ضده، محاولات فاشلة للبحث عن عمل، يلمح شاشة هاتفه أكتر من الطريق، يده تطيش بهاتفه من جيب البنطلون نحو أذنه، يكاد يتصل في اليوم الواحد على عشرات من الشركات، منهم من يقول أن عدد العمال الراغبين فيه تم، ومنهم من يقول أنه لا يشغل إلا العمال المنخرطين في خدمة التأمينات قبل الإلتحاق بهم، كأن الله غضب منه أكثر من ذي قبل، زاد انقلاب الحياة ضده أم ماذا؟

حينما ايتم من جديه بعد أبويه، بعد تشتت الأسرة التي تكفلت به أعوام قليلة -لا يزال ممتنا لهم لحد الآن- وعجز عن اجاد نبذة عن سيرة أبويه، تردد على المدرسة ككل الأطفال، يملك من الملابس مايزيد عن حاجيته، جده رحمه الله ترك منزلا يأويه. لا يستعصي عليه سوى مأكله ومشربه، ليس مضطرا للبحث عن مصدر لهما، فأحد جيرانه محسوب في قائمة الأغنياء في مدينته، لا يجود عليه بالمال، إنما يجود عليه بالطعام المتبقي بعد أكلهم، لم تعد الكلاب والقطط

المشردة تجد ما تأكله فهو يأكل حصتها، لجاره ذاك بنت اسمها زنوبة في نفس عمره، لا تشبه والدها سوى في جبين وجهها، تبتسم له كلما لقيته في الطريق نحو المدرسة، دائما ما يلتقي معها في منقطع الطرق حينما يكون عائدا من المدرسة العمومية وهي ذاهبة إلى المدرسة الخصوصية، تجود عليه أحيانا ببعض المال خفيتا، طلبت منه ذات مرة إحدي دفاتره بحجة أنها تريد الإستعانت بدرس أنجزه تلاميذ المدارس العمومية قبلهم، المفاجئة حينما أرجعته، فتحه ليراجع قليلا لعله يحصل على علامة ممتاز ليضمن التحاقه بالقسم الداخلي، في الصفحات الأولى ورقة بها رسمة جميلة من المؤكد أنها من أنامل زنوبة، الورقة مطوية، فتحها فإذا بداخلها ورقة نقدية من فئة عشرين درهم، مبلغ قليل لكنه في عينه كبير، دفعه كبريائه أو امانته لإرجاع ذاك المبلغ لها، لن يصرفه، ماذا لو كانت أخطأت ووضعته في دفتره بدلا من خاصتها، حينما لقيها في منقطع الطريق مرة أخرى، نادى عليها بصوت يملأه التواضع ولإنخضاع، فاتحها مباشرة:

- هذه الورقة وضعتيها في ذفتري بالخطأ.

قالت شيئا في سرها، ربما يلاه من أحمق أو من ذاك القبيل، ردت عليه وهو يمد يده لها قائلة:

- لا إنها لك، ثن استإجار الدفتر.

تذكر حينما كان جده يستأجر أدوات العمل لناس مقابل بعض المال، انه صغير ليفهم تلك الكذبة، وهي صغيرة لتكون تلك لكذبة من تأليفها، لم يفكر أن ثمن الدفتر الجديد يساوي عشرة دراهم، لم يلاحض أن لديهم شبكة الويفي في المزل وبإمكانها الحصول على أجود شروحات الدروس عبر الإنترنت، ما يهمه أنه حصل على مال يحل له، إنه من عرق جبينه كما اعتقد، يمكنه الآن شراء ما ينقصه من الادوات المدرسية، وصل إلى المنزل، وضع حقيبته، ارتد مسرعا وبيده تلك الورقة النقدية، يفكر هل يسبدل الدفاتير التي درسبها السنة الماضية ومزق منها الاوراق المكتوبة وتستأنفت رحلة سنة أخرى، لا فهي على وشك الإتمام وسيحتاج شراء واحد اخر، إذن لا جدو في اسبدالها حاليا، ربما يشتري المسطرات بأنواعها الثلاث، ليست مهمة إلى غاية الإمتحان الكبير الدي يعترض طريقه في نهاية السنة، غرق في التفكير إلا أن توقف عقله لدى فكرة رائعة، انبثقت في عقله العبارة التي قالها جده مائات المرات «سأستثمر هذا المال لينتج مالا أخر» عرضت الفكرة على عقله ثم ذبلت في الحين، لديه عشرون درهم والإستثمار يحتاج ألاف الدراهم، عاد الى التفكير، قامت الفكرة

السابقة بجولة لتجدد نفسها ثم تأتي بحلتها المقبولة، عزم على التجارة في المناديل الورقية، ان وجد من يبتاعه إياها، سيكون الربح إن قل نصف ما لديه، رغم قلة الربح إلا أنه كاف، فكما يقال قطرة ماء بعد قطرة يسيل النهر، ويقال أيضا القناعة بالقليل خير من الكثير دون قناعة، حاول إجاد بائع الجملة في مكان قريب، يدخل هذا المتجر ثم ذاك، محاولاته فاشلة، البعض لا يبيع المناديل، وأغلبهم استهزؤوا بالمبلغ الذي يحمله فأبوا ان يبيعوا له إلا بثمن التقصيط، رغم الفشل، يردد في ذهنه "أنا وحدي، انا كل شيء لنفسي" يتحدى الواقع والقدر، يفكر في غد أفضل، ليس كتلك الطائفة التي تقول الحياة ضدي سأستسلم إلى أن تحدث معجزة، الصبي هذا رغم صغر سنه يريد أن يكون هو المعجزة لا أن ينتظرها، فعلا، مع العزيمة سأل احد الباعة المتجولين عن مصدر المناديل له، ارشده إلا البائع فلان الموجود في الشارع كذا، اسرع إليه بعد ان شكر البائع، احس برعشة في جسده، نعم... إنه الحماس، لا يصدق انه على وشك اجاد مصدر للبعض الثروة وإن هي لا ترضي ابناء الأغياء، وما باله فهو ليس منهم، وقف امام المحل المراد، رفع روجهه نحو السماء، اغمض عينيه يناجي الله كما ألف، استبدل النفس في رئتيه دفعة واحدة، وجد التاجر وحده،

على اذنه قلم أزرق، امامه دفتر بجانبه ألة حاسبة، بين يديه رزمة أوراق نقدية زرقاء والتي يطلق عليها اسم "الزرقالاف" انها تساوي مائتي درهم، لم يعر الأمر اهتمام، الق التحية وشرع في طلب ما قدم من اجله، عرض الثمن الذي معه، بشره التاجر خيرا، صعد في السلم بجانب الرف على اليسار، اتاه بما طلب واقتض اجره.

غمرته سعادة لا توصف، سعادة أنسته الوجه لحقيقي للحياة، لاول مرة لم يراوده طيف جده العجوزين، ولا طيف والديه الذين لا يعرفهم، الآن تم الاستثمار، يلزمه بيع السلعة بالتقصيط، فكر في الأمر سابقا، سيتوجه نحو النصف الشمالي للمدينة حيث تكثر السيرات والمقاهي والمعامل، هناك يكثر الناس ويمكنه البيع متجولا.

وقف جانب موقف السيارة امام معمل لنسيج، يردد كلمة "كلينيكس" والتي تعني مناديل، ضل واقفا ولم يقترب منه احد، اشتد غضبه، لكنه علم ان القدر بيد الله يفعل ما يشاء، سمعها من جده ولا يستعملها الا حينما يحاول اعطاء امل جديد لنفسه، تجول في الجوار بين السيارات المتراصة في مواقفها، لا يزال يردد تلك الكلمة "كلينكس" حتى أوقفه صوت من خلفه بالفرنسية، استدار ليجد سائحا جرح في يده جرحا صغيرا، استطاع فهم ما يقول بصعوبة رغم انه يدرس الفرنسية في

المدرسة، طريقة حديثهم بها ليست كالتي نستعمل، ابتاعه واحدة، وكانت كالمفتاح لباب الرزق ذاك اليوم، كاد يطير فرحا لأن مشروعه بدأ يتقدم، قام بجولات عدة، كل جولة يبيع واحدة أو يجد اسرة تريد التنزه فتشتري أكثر، جلس حين شعر برجليه تؤلمانه من كثرة التجوال، وضع يده بجيبه ليتفقد ماله لألا يكون قد فقده، فالقليل عند البؤساء يساوي الملاين، خاصتا صبي في مثل عمره، سلعته نفذت عدى قطعة واحدة، فكر أين يبيعها، انه يشعر بالتعب لا يكاد يقف، يريد أن يستلقي فحسب وينعم بقليل من النوم، لعلها تكون مفتاح الرزق ليوم غد، عاد إلى منزله ليرتاح، في الطرق التقى فتاة الجار الغني، اعطته ورقة نقدية من نفس الفئة مصحوبة بكلمات نطقت بها ككل طفل بريء:

- من فاعل خير.

حار من امر تلك الفتاة وما تقدمه له من مال، تيقن من أنها لا تصرقه، وليس بالغريب ان يكون ابن الغني غارق في النقود ولو كان صغيرا، تجعله هذه الفتاة يطرح سؤال لنفسه، هل أنا اشبه ابي أم اني مثلها لا تشبه والدها؟ يجعل هذا الشجون تتراكم في قلبه ولا سبيل للحد منها،

كلما راوده نفس السؤال يعود الى فيلم حياته مع جده قبل حدوث الكارثة كما يصفها.

طيلة أسبوع كامل وهو يتاجر في سلعته يكسب منها ما يأكل به ما يشتهيه الأطفال من طعام، ليته واع ليدخر القليل منه ليكافح به عدو الزمان القادم، ذاك اليوم العسير، عاد الى المنزل متبخترا فرحا من ما جناه من مال عكس السالف من الأيام، وضع المفتاح في قفل الباب، اداره يمينا وشمالا ولم يفتح، دفعه بكل قواه، جدبه إليه، لا جدوى، اخرج المفتاح وادخله مرة اخرى، كرر نفس الشيء عدة مراة، لا حياة لمن تنادي، لم يفتح، ليست هذه من عادة الباب، كان سهل الفتح، لمح من بعيد خادمة جاراه الغني وهي عائدة من اسوق، حبلى بمستلزمات البيت، هرول نحوها، حدثها بلهجته المتسارعة تغمرها علامة الأمل وبريق عينيه، القى عليها التحية كما تربى عليه من جده، طلب منها مساعدته في فتح الباب معتقدا أنه يأبى الفتح لتعطل كما يحدث أحينا، صعب عليها رد التحية، وما ادراك بالاجابة عن سؤاله، نضرت في عينيه بلطف، حركت شفتيها رغبة في الحديث لكن الكلمات كالسكين الحاد، لن تخرج إلا وجرحت قلبها، بل يجرح قلبها ويمزق قلب ذاك الطفل الصغير المسكين، حاولت البحث عن كلمات

أقل قسوة لتفاتحه في الموضوع، بدأ ينضر يمينا وشمال كأنه يبحث عن شخص اخر ليساعده، حقا صمتها هذا سيء، والحديث أسوء، تمتمت بكلمات غير مفهومة، طلب منها توضيح ما قالت، تحدثت معه بنبرة مرققة بغية تقليل الأثر السلبية لما تتفوه به:

- عزيزي، لا أدري كيف سأخبرك... ولا كيف ستتقبل ما سأقول، لكن رجالا أتوا حينما كنت غائبا عن المنزل قالوا انهم من طرف المحكمة مع ورقة تثبت أن المنزل أصبح ملكا للوارث الشرعي، لقد استبدلوا قفل الباب، ولم تكن أي فرصة لأحدثهم عنك، لكن لدي خبر يفرحك نسبيا...

قاطع صوت خشن من الخلف حديثها، صوت ألف ذاك الصبي التقزز منه، لا يحب سماعه، ومن غيره، إنه جاره والد الطفلة التي تجود عليه بالمال، سيد المرأة التي تحدثه، لم يبتسم وجهه قط من قبل وخاصة إن رآه، حدث الخادمة كما لو أنها اقترفت جرما لا يعفو عنه الشرع ولا القانون:

- تبا لك أيتها الغبي، اتتركيت عملك لتتحدثي مع هذا الوغد الصغير.

وجه خطابه للصبي أيضا قائلا:

- هيا انصرف، ليس لديك سبب للبقاء هنا.

انصرفت ووجهها يكاد يلامس قدميها من فرط خوفها من خشن الصوت ذاك، أما هو فنضر إليه نضرة اسغراب وكراهية وخوف وحزن، من المؤكد انه رغب في صرخة قوية ليخرج ما بداخله من أحزان، يا لسيء الحض هذا، تراجع نحو الوراء بخطوات رتيبة قبل أن يجري بسرعة واللعين يشاهده والمنعطفات تلتهمه، لم يهنأ له بال إلا حينما لم يعد يراه، أيعامله هكذا لأنه أدنى منه غنى أم لأنه يتيم الأبوين، ولما الحياة ضده منذ أن ولد فيها.

الفصل الثالث

هدنة

جالس كأس شاي في مقهى مطل على الشارع العام، يشاهد السيارات تمر وكأنها تعرض له ذكراياته المريرة، كلما مرة واحدة إلا وتذكر حدثا من حياته، أحينا يبتسم لحدث جميل وأحينا يبتسم ساخرا من أخر، عينه تضل ثابة نحو أخر نقطة يراها أمامه، كل من رأه يقرأ في وجهه هدفا يسعى إليه، ولربما من المستحيل الوصول إليه، مر بائع جرائد متجول من أمامه، فكر في شراء جريدة للعله يصادف إعلان عن عمل ولو مؤقت، لقد فقد الأمل، وإن وجد إعلان واتصل بهم، لا ريب أنهم سيرفضونه قبل رأيته، أو لربما لن يعطونه وقت ليقديم نفسه كما فعل من قبلهم، رفع الكأس وشرب منه القليل، اقترب البائع من الجالسين في المقهى ذاته، يردد عناوين الجرائد التي يحملها، جرائد أخبار سياسية ورياضية وتعليم وصحة وغيرها، اقترب منه وهو شبه غائب عن وعيه، حاضر جسدا وغائب ذهنا، كلمه وكأنه يعرفه يسأل عن أحواله وعن أسرته وسبب همه هكذا،

تعجب من طريقة حديثه، أجابه عن اسئلته منبها إياه أن لا أسرة له، قبل أن يخبره بسبب همه، وجه له سؤال هو الأخر، هل تعرفني؟ كأن البائع لم ينتظر هذا السؤال، كيف؟ قبل سنة تقريبا حينما كان عامل بناء مستقل اشتغل عند البائع أثناء ترميمه لمنزله القديم الذي ورثه من أبيه عن جده، كان أوفى العمال وأصدقهم، لم يكن كثير الكلام ولا متهاونا في عمله، ارتاح له حينما تذكر تعامله اللطيف وأداه الأجرة في وقتها.

اصبح جاهزا ليقص عليه قصته، من الجميل أن تجد انسات ينسط لك، يرتاح قلبك من عبئ الهموم والاحزان المتراكمة التي يمكن تفريغها أمام أي شخث كان، أنصت البائع بإهتمام وتمعن في كلامه، ما أجمل ما سمعه من فم هذا الرجل المسن:

- لا تحزن ما ضاقت إلا لتفرج، أنا أعرف سيدة في نفس الحي الذي أسكنه لديها مشاريع متواضعة، حقا هي بدأت مؤخرا لكنها لن ترفض لي أي طلب، أترك لي رقم هاتفك سأخبرها عنك واطلب منها ان تبحث لك عن منصب لتشتغل لديها، أنا أعرفها جيدا إنها تحب مساعدة الناس وخاصة من يأتي من طرف شخص وعدته بأن تفديه بروحها.

استنشق بعض الهواء وهو مرتاح أخيرا، لا يصدق أن الفرج قد يأتي من حيث لا يحتسب الإنسان، قبل دقائق كاد عقله ينفجر من شدة التفكير، لو كان صغيرا لبكى، ما يحدث حاليا ليس سوى مزحة الحياة، قساوتها ذاقها وهو صغير، ذاق مرارة العمل في شحن البضائع وأعمال الفلاحة، بدأ العمل في البناء وهو مراهق في عمر ستة عشر سنة، أخبر بائع الجرائد هذه التفاصيل بالتواريخ والأماكن، جعله يعيش معه أحزان الماضي، جلسا معا في نفس المكان يتبدلان أطراف الحديث ردحا طويلا من الزمن، في النهاية ودعه قائلا بفمه ومشيرا بيده "انتظر المكالمة الهاتفية مني" انصرف كلاهما، البائع لعمله، والمهموم للبحث عن منزل صغير للإجار ثمنه يلائم عطله عن العمل.

للمرة الأولى يأوي إلى فراشه ورأسه لا يألمه من شدة التفكير، انه يبتسم دون سبب، لا بل هناك سبب، وما أعضمه، إن الأمل ولو بنسبة قليلة كفيل بإحياء إنسان بعد موته، كيف لا و قد كان ينضر إلى نفسنه نضرة احتقار، اصبحت شخصيته ضعيفة، لولى الكبرياء لخر باكيا كالصبي أو المرأة الكثيرة البكاء، إن هذا الإمل جعله يعيد التفكير في حياته، فتح اجتمعا مغلقا في عقله يتدارس السياسة الجديدة التي سينهجها، سئم خضوعه لقوانين الحياة القاسية، عزم على وضع نظام

لحياته يجنبه التحرك اتجاه الرياح... نام كالطفل الصغير الذي يسمع قصة سندريلة من فم أمه ثم ينام قبل أن تصل إلى النهاية.

عندما ينتظر الإنسان لحظة حسم لحياته يصبح عقله منبها برنة الأمل، استيقض في تمام الساعة السابعة، تناول إفطاره ثم خرج مسرعا، أخذ معه بعض المال يقدره في إجار ثلاثة اشهر، طبعا سيستأجر منزلا صغيرا، لا يحب التباهي بالمنازل، اضافة إلى أنه وحيد فماذا سيفعل بمنزل كبير، كان متخوفا من عجزه عن دفع الاجار، لكن ليس بعد ان عاد إليه الأمل في لقاء يوم البارحة، ساعده اشتغاله في البناء كعامل حر أن يتعرف على عدة أشخاص يتوسطون في بيع واستئجار المنازل، سيختار منزلا في مكان هادئ فهو يحب التأمل ودراسة الحياة وإن كانت النتيجة دائما راسب.

توقفت أقدامه عن السير، وعقله عن التفكر والحوار الداخلي أمام مبنى من طبقين له باب أخضر اللون موارب على نصرعيه، تعلوه لافتة مكتوب بها مقاولة فلان للبيع وكراء المنازل بجانب شعار للمحل، من خلفه مباشرة باب زجاجي تتوسطه ورقة بيضاء مكتوب عليها بالاسود مفتوح، ابتسم بسمة عريضة، تنفس الصعداء، خطى خطوات نحو الأمام، سأل تلك الشابة في الاستقبال عما إذا كان باستطاعته

مقابلة صاحب المقاولة، نضرت اليه باستهزاء، سكتت حتى ضن أنها لن تتكلم، ألقت ذلك الحرف كما لو أنها تشرتي الكلمات بالمال "لا".

- هل لديه اجتماع ام ماذا؟

هامت في ما كانت تفعله لهنيهات غير مبالية بالواقف أمامها كأنه صنم منحوت من حجر، طال صمتها، فاض غيضه، كرر سؤاله وما تحركت ساكنة، من المحتمل لو كان صاحب المقاولة لتعامل معه باحترام، لقد عمل لديه ويعرف كيف يتعامل مع زبنائه والعاملين لديه، تنهد ليكرر سؤاله لولا أن فتح الباب الذي يقابله من اليمين، خرج منه الشخص الذي يسأل عنه، يا لحضه الجميل، ضن ان اللعنة التي تبعته مذ ان كان صغيرا قد اندثرت، بالأمس جاء شخص صدفة ليساعده، والآن خرج هذا الرجل ذو البطن المكور ليرميه بنضرة متفحصة، تفحصه بعينه كأنه يبحث عن هويته وسط مئات الأشخاص الذي يتعامل معهم، كاد أن يقول له نعم انه هو ذاك الشخص في ذهنك لولا أنه تذكره فاقترب منه يصافحه، سأله عن أحواله وعن استرته ضانا ان له أسرة، حرك سؤال ذو البطن مشاعر الطفولة بداخله، تبا بالكاد نسي كل هذه المشاعر، كيف تذكرها وفي موقف كهذا، لم يرغب في

الحزن، نبذ كل الافكار السلبية، تبادلا الحديث، سؤال جواب، جواب وسؤال، اعضم سؤال، بفضله تم هذا اللقاء.

- هل أجد لديك منزلا صغيرا من غرفتين ومطبخ وحمام للإجار؟ منزل متواضع فأنا لا أحب التفاخر بالمنازل، أريده في مكان هادئ.

- جميع المنازل آلتي في ملكنا مأجورة، لكن لديك حض جيد، اليوم صباحا اتصل بي أحدهم يقول أن منزله شاغر ويريد عرضه للإجار، لو تأخرت قليلا يمكن أن لا تدركه فموقعه جيد وزبائني كثر.

حمد الله في سره، ردد فكرة أن اللعنة تركته، تحمس كثيرا لاستأجار هاذا المنزل قبل أن يتصل به بائع الجرائد، التقى الثلاثة في ذات المنزل، صاحبه وصاحب مقاولة الاجار وصاحبنا هذا، أعجبه المنزل حقا، متواضع وموقع جيد، لا ضجيج السيارات ولا معامل، فقط أصوات بعض القطط، اتفقوا على الثمن اشهري، رأه غاليا قليلا لكنه يستحق، لا يهمه الأمر طالما سيعمل خلا الأيام القليلة القادمة، مضى العقد به ثلاثة اشهر بعد دفع ثمنه.

خرج الثلاثة يسيرون حداء المنزل يدردشون لقليل من الوقت، انهى القاء قائلا "الحديث شيق والوقت ضيق"، يجب أن يتم أمانته في المنزل السابق، يحب أن يستعد لبداية حياة جديدة مليئة بالسعادة، بعيدا عن البؤس والشقاء.

الفصل الرابع

فسحة

ترجل في الشارع منشرح الصدر، فتحت عينه لترى جمال المدينة، سمع صخب السيارات ممزوجا بعويل الباعة المتجولين، لقائه بائع الجرائد يوم أمس نزع الوقر من اذنيه، والغشاوة لعينيه، من قبل لم يكن يسمع سوى تضارب الأفكار في عقله، عينه لا ترى سوى الذكريات المريرة، يكاد يطير فرحا، من رأه يمشي متبخترا خاله من المتكبرين ذوي الأموال الطائلة، كيف لا؟ فهو أغنى إنسان على وجه الأرض، لو يعلم الأغنياء حال الفقراء لما اشتروا سيارات ومنازل لا دور لها سوى الركون في زاوية لا تستعمل إلا نادرا، حقا الفقر يجعل الإنسان بئيس، من لم يتمالك نفسه فالانتحار نهايته، لولا أن الحياة تتغير، يوم للإنسان ويوم عليه لما استطاع أحدهم الكفاح لتغير أحواله، ها هو ذا بعد العسر يصل مرحلة يتنفس الصعداء، بدأ يفكر في حياة أجمل مما هو عليه، إن كان عمله الجديد فعلا كما وصفه بائع الجرائد

فلا حزن ولا قرح بعد يومه هذا، لأول مرة يفكر في تكوين اسرة، فكرة وافق عليها، جعلها في القائمة بعد فكرة اخلاصه في عمله اكثر مما كان يفعل ليحافض عليه، لعل ما حدث له من طرد وسوء حض بسبب تقصيره، فعلا، من مبادئه قوله صلى الله عليه وسلم " رحم الله عبدا عمل عملا فأتقنه" إلا أن الإنسان ليس معصوم من الزلل، لعله اساء دون قصد، ولعله تصرف بشيء حسبه هين ولكنه عكس ذلك في عين مخدومه، انتهى كل هذا، للحياة بداية جديدة، تردد صدى تلك العبارة في ذاكرته، فرز هرمون الابتسامة، يكاد يضحك في الشارع كالمجانين، أولائك الذين لا تهمهم الحياة، يضخكون ليلا ونهارا وفي أي مكان، من بوسعه أن يمنعهم، عالمهم خاص لا يلجه غيرهم.

دخل الحمام ليقضي حاجته، أغلق الباب، جرس الإمل يرن، طارت يده لا إراديا نحو جيبه، أخرج الهاتف، نعم هو، يا لها من مدة لم يرن الهاتف إلا لخبر سيء وها قد انقلب القدر، رد على المكالمة، رفع الهاتف نحو أدنه، بائع الجرائد في الجهة الأخرى من الخص.

- ألو... السلام عليكم

- وعليكم السلام

ثوان من الصمت القاتل، تحدث بائع الجرائد في لهجة مبشرة بالخير.

- أضن أني قد كذبت عليك البارحة...

أصيب بصعقة، تبادر ضن السوء إليه من جديد، أردف المتصل.

- كنت قد حدثتك عن عمل لدى تلك السيدة، لكن...

لما سمع لكن انقطعت انفاسه، اتم الأخر حديثه.

- عندما تحدثت معها أخبرتني عكس ذلك...

تبا لهذا، لا يعرف كيف يتحدث، من البدء فليقل لم يعد مما قلنا شيء باختصار، همهم يؤكد إنه على الخط لا يزال، استأنف،

- هي سعيدة لتشغيلك، لكن في مدينة أخرى حيث تحتاج من يعمل هناك، أما هنا فلا تحتاج عمال.

أطلق زفيرا طويلا ثم تحدث بعد الإنصات.

- المهم أن يكون عملا كما وصفته، هنا أو هناك، سواء...

بائع الجرائد :

- ألو... أل... ألو، ماذا هناك

من هاتفه يسمع صوت ارتطام، صوت شبيه بالغرغرة.

لا يدري كيف فعل ذلك بصدفة أسقط هاتف فدخل فتحة الصرف الصحي، ارتمى عليه لينقذه، في الوقت الغير المناسب، ابتل الهاتف تماما، ام يعد يعمل، تبا ليديه المطاطيتان كما يقال.

خرج من المنزل كالطفل الصغير تاركا الباب موارب، اطلق رجليه للريح لعله يدرك إحدى متاجر صيانة الهواتف قبل أن يغلق، يفكر في الهاتف، في المنزل المأجور دون حاجة، في خوفه من مدينة أخرى، في متى يلتحق بعمله الجديد؟ وحياته الجديدة؟